المصـــــدر : الشرق الاوسط

التـــاريخ : 06-11-2007 العـــدد : 10570

الصفحـات : 19 المسلسل : 77

هذه الحملة الصحافية الظالمة

من خلال العمل الإعلامي الطويل في أوروبا، أصل إلى قناعة طريفة: الأنظمة والحكومات الغربية أعمق وعيا ومسؤولية في فهم العالم العربي، من أحزابها وطبقتها السياسية والإعلام والشارع الأوروبي.

زيارة العاهل السعودي لبريطانيا مثال واضح على التناقض بين الحفاوة البالغة والاهتمام الرسمي بالسعودية، والهجمة الإعلامية الحاقدة التي شنتها بعض الصحف البريطانية على هذا البلد العربي.

بحكم العلاقة التاريخية، تعتبر الحكومات البريطانية المتعاقبة السعودية البلد العربي الأهم، لنفوذه العربي والإسلامي الواسع، ولدوره الدولي والإقليمي الكبير، ولموقعه الجيو/سياسي في منطقة شديدة الاضطراب. تمكن النظام السعودي من إقامة واحة للاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي في قلب الخليج والجزيرة العربية، ثم بنى مع العالم علاقة قائمة على الثقة به، كنظام متزن ومعتدل في عالم عربي وإسلامي يعج بأنظمة متطرفة، وبحركات صاخبة متزمتة تسعى إلى مواجهة غير ضرورية بين الإسلام والغرب.

العالم اليوم شبكة متداخلة من العلاقات الاقتصادية والمالية التي لا يمكن فصمها. لا بد من الاعتراف بأن جانباً من اهتمام العالم الغربي بالسعودية كونها المصدر الرئيسي للطاقة النفطية التي تقوم عليها الصناعة الحديثة والحضارة الإنسانية.

قسط كبير من هذه الثقة العالمية بهذا البلد العربي يعود إلى إدراك قيادته السياسية العميق، لا سيما في عهدي الراحل فهد بن عبد العزيز وأخيه عبد الله بن عبد العزيز، لأهمية بناء مصلحة تبادلية مشتركة مع العالم، بحيث لا يحدث خلل في الإنتاج والتسعير يضر بالاقتصاد العالمي، كما يؤدي إلى رفع العالم الصناعي لقيمة السلع التي يستوردها العالم العربي والنامي.

الدولة العصرية هي دولة التنمية الاقتصادية. دول الخليج غرفت، على الرغم من الأخطاء، كيف تستثمر مواردها النفطية في التنمية، بأكثر مما عرفت وفعلت دول عربية في المشرق والمغرب. بعد استكمال البنى الأساسية (مدن. مطارات. موانئ. طرق. مدارس. شبكات مياه وكهرباء...) اتجهت السعودية في العقود الأخيرة إلى تنويع اقتصادها، وجذب الاستثمارات الخارجية. هذا التخطيط الحكيم يعتمد على إدراك أن النفط سلعة ناضبة، ولا بد من تأمين الحاضر والمستقبل.

خلال العامين الأخيرين، حققت السعودية وفرا ماليا ضخما كافيا لتغطية تكاليف الاستثمار. لكن السعودية لا تحتاج الى المال بقدر حاجتها الى التقنية الصناعية. من هنا، كانت محاولتها الجاهدة والناجحة لادخال إصلاحات اقتصادية واسعة، قدمت فيها تسهيلات وضمانات للاستثمارات الخارجية، بالإضافة أصلا الى نظامها الاقتصادي الليبرالي الذي يسمح بتحويل الأرباح ومدخرات العاملين من أفراد وشركات.

وهكذا، لم يكن غريبا أن يركز العاهل السعودي خلال جولته الأوروبية على حث دول صناعية كبرى، كبريطانيا وألمانيا وايطاليا على الاستثمار في السعودية. بريطانيا، مثلا، ثاني أكبر مستثمر في السعودية. العلاقة الثنائية التبادلية تقدر سنويا بأكثر من خمسة مليارات دولار. ألوف البريطانيين يعملون في السعودية. ألوف السعوديين يدرسون في المعاهد البريطانية.

وهكذا أيضا، ليس غريبا أن تعتبر بريطانيا السعودية شريكا استراتيجيا في منطقة بالغة الأهمية كالعالم العربي والشرق الأوسط. لماذا، إذن، هذه الحملة الصحافية الظالمة للسعودية؟ قلت إن النظام الديمقراطي الغربي، مهما كانت خلفيته السياسية وموقفه المنحاز أو اللامبالي، فهو أكثر وعيا وادراكا من الإعلام الغربي في فهم العالم العربي بروح من المسؤولية، أو بحد أدنى مقبول من المسؤولية.

غير أن هناك سببا للحملة الاعلامية أعمق وأكثر أهمية هو ما استطيع أن أسميه بعبارة مختصرة: الاختلاف في دور المؤسسات الرسمية والمدنية هنا وهناك، وفي تباين الرؤيتين السعودية والغربية لدور الدين في عصر الحداثة المادية. ثم أجد، في الحالة البريطانية أسبابا أخرى أقل تأثيرا وأهمية، كالضوضاء المشاغبة «للمعارضات» المتزمتة المقيمة في لندن، وكذلك حسد نظام عربي أو أكثر للسعودية مكانة ودورا، هذا الحسد الذي يصل مع الأسف الى تمويل وتشجيع هذه «المعارضات» وصحف عربية، وربما غربية للمشاركة في هذه الحملات؟

في التفاصيل، أقول إن أوروبا أنفقت 1500 سنة لبناء مؤسسات ومجتمعات مدنية خارج المؤسسة الكنسية الدينية. من هذه الاستقلالية عن الدين، تنطلق الرؤية الإعلامية، لنظام كالنظام السعودي القائم على المزاوجة بين الدين والدولة، وعلى محاولته التوفيق بين الإسلام والعصر.

الصحافة البريطانية تسيء فهم النظام السعودي في محاولته مصالحة الإسلام مع العصر وتخفيف عبء التقاليد على الدين

الفكر الغربي المعاصر، بما فيه إعلامه، لا يستطيع أن يدرك محدودية قدرة النظام السياسي على تغيير هذه المعادلة التاريخية. شرعية الدولة السعودية نشأت على المزاوجة بين بيت سياسي (آل سعود) وبيت ديني يتمثل بحركة الموحدين الوهابية.

لكل من البيتين استقلالية ذاتية. نعم، حركة الموحدين ليست مذهبا دينيا كما يظن بعض العرب والغرب. انها حركة دينية متطهرة كان غرضها

المصـــــدر :	الشرق الاوسط		
التـــاريخ :	06-11-2007	العـــدد :	10570
الصفحـات :	19	المسلسل :	77

غسان الإمام

تخليص المذاهب الدينية مما علق بها من أوشاب وبدع وتأويلات وطقوس. هذه الحركة الإصلاحية نشأت في عصر نشوء الحركات المسيحية المتطهرة في أوروبا كاللوثرية والبروتستنتية (التي تدين بها الكنيسة الانجليزية). وقد اتجهت هي أيضا بالدين المسيحي الى التطهر والتخفيف من ربوبية المسيح وتقديس البابوات.

السعودية وطن المقدسات الإسلامية. السعودية فضاء روحي قبل أن تكون نظاما سياسيا واجتماعيا. النظام السعودي حارس عربي أمين على هذه المقدسات. وهو يراعي هذا الاعتبار لدى مجتمع عميق الايمان والتدين. مع ذلك، ففي رؤية النظام لمقتضيات العصر، فهو يحاول ان يزاوج بين الدين والحداثة بخطى وئيدة وشكل تدريجي. وغرضه لا التخفيف من دور الدين وقيمه، وانما التخفيف من ضغط التقاليد والعادات التي تشكل عبئا على الدين.

القيادة السعودية تقوم بدور الحكم بين القوى المحافظة والقوى الاصلاحية. الحكم الحازم يمنع التجاوزات في مجتمع تقليدي لم يألف بعد قيم الحوار السلمي والموضوعي. هذا التدرج الرسمي في الانفتاح يضع التنمية الاقتصادية والبشرية قبل الديمقراطية كما يطبقها ويراها الغرب. المؤسسة التمثيلية (مجلس الشورى) تقوم على مبدأ الاختيار لا الانتخاب. جرت انتخابات بلدية، لكن الاختيار ربما كان اكثر قدرة على المحافظة على الاعتدال، من انتخاب قد يأتي بمحافظين الى السدة النيابية أشد تزمتا، كما نرى في مجالس دول الخليج ومصر والسودان والاردن والجزائر.

أيضا، نجح النظام السعودي في محاربة الارهاب اكثر مما نجح بلير وبوش. لم يلجأ الى الأمن فحسب، وانما الى العقيدة والفكر أيضا. تخلى شباب كثيرون عن العنف والتزمت، بفضل «المناصحة» القائمة على الاقناع بالعقل والتبصير بقيم التسامح والانفتاح في الدين.

يجري أيضا اصلاح نظامي التعليم والقضاء، وتحديث النظام الاداري، وتعويد الشباب والمجتمع على قيم العمل والإنتاج. مع جولة العاهل السعودي في الغرب، جرى تدشين مدينة جامعية للعلوم والتقنيات الحديثة في شمال جدة، وسوف تتمتع بحرية التواصل الفكري والتقني مع العالم المتقدم. الصحافة البريطانية لا ترى هذه التفاصيل. تتعلق بالسلبيات. تبحث عن القيم المادية الحداثية في مجتمع روحي. تريد تحقيقها فورا، متجاهلة تحقيقها في بلدانها بعد حروب ومذابح دينية استغرقت مئات السنين.

يدهشني الأدب الديبلوماسي السعودي في التعامل مع هذه الحملة الظالمة الشرسة. الترفع عن الرد يرجع الى السمو بالنفس في الانسان العربي، والى الصدر الرحب والحكيم الذي يتمتع به رجل في حكمة ونبل مسؤول كبير كعبد الله بن عبد العزيز.